بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 46 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة الإنسان

التاريخ:30\05\2023 م كتبه: عبدالله ضيف الستري

وصل الكلام إلى الآية الرابعة عشر، قال تعالى: ﴿وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلا﴾.

في هذه الآية المباركة، تتابع الآيات ما يرتبط بالجنة، لمّا كان جزاء الأبرار هي الجنة، والتي هي مأوى للأبرار، ومن ناحية المكان ﴿مُتَّكِئينَ فيها عَلَى الْأَرائِكِ﴾ ومن ناحية جوها ﴿لا يَرَوْنَ فيها شَمْساً وَلا زَمْهَريراً﴾.

فجاء هذا الوصف الثالث –سواء أعربناها حال أو نعت أو غير ذلك– ليقول لنا: ﴿وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها﴾ أي أن أغصان الأشجار الموجودة في ذلك المكان الذي هو مأوى للأبرار دانية من هؤلاء المتكئين؛ للإشارة إلى كمال الراحة، تستطيع أن تأكل ثمار الجنة بلا حاجة إلى أن تقوم من اتكائك؛ لأن أغصان تلك الأشجار المثمرة قريبة منك.

كان حق الكلام لو أردنا أن نعبر كتعبير إنساني، وإلا الذي لا يعرف مغزى الآيات قد تأتي الشبهة إلى ذهنه، إذا اردنا أن نعبر تعبيراً إنسانياً فكان حق الكلام أن نقول: ودانية إليهم أغصانها. فلم يعبر بالأغصان وعبر بالظلال؛ ليستفاد من ذلك حالة تشابك الأغصان بحيث ظلل على هذا المتنعم في الجنة.

وأما تعدية الدنو بـ ﴿على﴾ فيه إشارة إلى أن هذا الشيء يأتي من العلو، وإلا كان يمكن أن يعبر ودانية إليهم أو ودانية منهم، تقول دنا مني أو دنى إليّ. هذا إذا كان بجنبك، لكن هذه المنحة من العلو استلزمت أن نعبر بـ ﴿على﴾ التي هي للاستعلاء.

تأتي شبهة، وهي أنه في الآية السابقة فرعنا عن أنه لا يوجد في تلك الجنة شمس، فإذا لا يوجد شمس فلا يوجد ضلال؛ لأن الظل إنما ينشأ من الشمس.

أجاب الفخر الرازي: أنه هذه الآية يقصد منها أن أشجار الجنة وأغصانها تكون بحيث لو كان يوجد شمس لظللت عليهم. هذا نظير بعض التعبيرات في الأصول كالإجماع التقديري واللولائي، أي على تقدير أن القدماء التفتوا إلى هذه المسألة لكانوا اتفقوا، ولكن بالفعل لا يوجد اتفاق؛ لأن هذه المسألة لم تكن مطروحة في ذاك الزمن. فهنا يقول أن هذه الأغصان وهذه الأشجار لو كانت توجد شمس لظللت عليهم.

لكن هذا التعبير يقتضي صحة السلب، وأن هذه الأشجار لا تظلل بالفعل، أي شأنها لو كان يوجد شمس أن تظلل، لكنها بالفعل لا يوجد.

تحقيق البحث: تارة نبني في الآية السابقة أنها تدل على نفي وجود شمس، وأخرى نبني على أن هؤلاء لكونهم متكئين على الأرائك، والأريكة في داخل القبة، فحينئذ لا يرون شمس، لا أنه لا يوجد شمس.

وعلى المبنى الثاني لا يوجد شبهة، لم يكن هناك شمس، لكن هذه الشمس في داخل القبة لا نراها، وفي الحدائق والجنان تكون الأغصان مظللة عليه، بناء على هذا لا يوجد شبهة.

لكن هذا لم يتضح لا من الآيات ولا من الروايات.

أما لو بنينا على أنه كما يظهر من بعض الروايات في الجنة لا يوجد شمس، لكن ينبغي أن نلتفت إلى أنه بانتفاء الشمس لا ينتفي الظل، ففي الليلة المقمرة يكون هناك ظل، الظل يلازم وجود النور، والآية الشريفة بالاستعانة بالروايات نفت وجود الشمس لا كمظهر للنور، بل نفت وجود الشمس في مقابل الزمهرير، أي لا يوجد عليكم لا شمس تهلككم بحرارتها ولا ريح تهلككم ببردها. فهذا هو المنفي. أما النور فلا يوجد لا آية ولا رواية تنفي ذلك. إذاً تصلح للتظليل.

وعلى كل تقدير هذه كناية عن الدعة والراحة، تدل بعض الروايات على أن الأغصان هي التي تتحرك، وهي التي تعرض على المؤمن.

﴿وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلا﴾ القطوف: أي ما يقطف، وما يقطف هو الثمار التي تستعمل للأكل.

فإذاً في هذه الجنة، وهم متكئين على الأرائك، هكذا يجلسون، هكذا يعيشون، ولا يؤثر فيهم حرارة ولا برد، وفي هذا المسكن الجنان والأشجار تظللهم وتأتي إلى خدمتهم وهم في حالة الاتكاء، وإذا قاموا ترافقهم وهم في حالة القيام.

والتذليل: الشيء الصعب المراس، الأغصان المثمرة أصبحت طرية لينة بحيث إنها تتحرك بالثمار، ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلا﴾.

فإذاً هذه الآية المباركة واضحة الدلالة على مفادها في وصف مسكن هؤلاء الأبرار، والذي هو الجنة.

وفي التفسير الكاشف للمرحوم الشيخ مغنية، يقول إن دانية في اللغة العربية تستعمل بأحد معنيين:

المعنى الأول: من الدنو، وهي القرب. ولعل هذا هو الأشهر والمتعارف.

المعنى الثاني: ناعمة.

ثم يقول إن في هذه الآية الأفضل والأولى أن يفسر دانية بالمعنى الثاني، ويذكر لذلك قرينتين:

القرينة الأولى: أن الدانية بمعنى الناعمة أكثر انسجاماً مع الظلال من الدانية بمعنى القرب.

القرينة الثانية: التعدية بعليهم؛ إذ لو كان المراد من دانية القرب لكان أن يقول دانية إليهم لا دانية عليهم.

وهذا خلاف ما عليه الذين فسروا هذه الآية المباركة. فبالنسبة للقرينة الأولى:

أولاً: لم يتضح لنا من كتب اللغة أن دانية تستعمل بمعنى ناعمة، بل في معجم مقاييس اللغة أن الدال والنون والحرف المعتل ليس له إلا أصل واحد وهو القرب، ولم يذكر له معنى آخر.

ثانياً: لو تنزلنا وسلمنا -قد يكون في بعض الكتب اللغة المعاصرة يذكرون هذا المعنى- فما جعله قرينة ليس قرينة؛ لأنه بنينا على أن الظلال استعملت بمعنى الأغصان؛ لأن الأغصان هي التي تجعل الظلال بعلاقة السببية والمسببية، فالذي يكون قريباً هو الأغصان، لا معنى لأن نقول الأغصان ناعمة.

وبالنسبة للقرينة الثانية: فإذا كانت كيف تتعدى بـ ﴿على﴾ فلم يبين لنا الوجه في كون ﴿على﴾ قرينة على أن المراد من دانية ناعمة.

فالصحيح هو ما ذكرناه، وعليه أكثر المفسرين.